عثمان بن عفان وعمرو بن العاص

ليسا ندًا بند بالمعنى المفهوم، فأحدهما هو خليفة المسلمين والآخر قائد عربي عظيم ووال معزو من منصبه.. إلا أن القائد عندما عزل اتخذ الخليفة ندًا له.

الخليفة هو ذو النورين عثمان بن عفان، والقائد هو عمرو بن العاص.

ولد عثمان بن عفان في الطائف، وقيل في مكة بعد عام الفيل بست سنين.. هو من بطن بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وهم من كبار سادات قريش وأبوه عفان ابن ع.م أبي سفيان بن حرب، وهو أحد المبشرين العشرة بالجنة، كان عثمان غنيًا شريفًا في الجاهلية، ومن أحكم قريش عقلًا وأفضلهم رأيًا، كما كان محبوبًا من قبلهم، وهو لم يسجد لأي صنم طوال حياته، كما أنه لم يشرب الخمر لا في الجاهلية ولا في الإسلام، كما أنه قد كان على علمٍ بمعارف العرب في الجاهلية من الأنساب والأمثال وأخبار الأيام، وقد رحل إلى الشام والحبشة وعاشر أقوامًا غير العرب، فعرف من أحوالهم وأطوارهم ما ليس يعرفه غيره من قومه.. اهتم بالتجارة التي ورثها عن والده ونمت ثرواته، وأصبح يعد من رجالات بني أمية الذين لهم مكانة في قريش كلها، فكان كريمًا جوادًا، وكان من كبار الأثرياء، وقد نال مكانةً مرموقةً في قومه ومحبةً كبيرةً منهم.. وقد كان يكنى في الجاهلية أبا عمرو، فلما جاء له ولده عبد الله من رقية بنت النبي محمد، كناه المسلمون أبا عبد الله.. وكان عثمان يلقَّب بذي النورين، لزواجه من رقية، ومن ثم أم كلثوم بنتا النبي محمد صلوات ربي وسلامه عليه.

أما عمرو بن العاص، فهو ابن، العاص بن وائل، أحد سادة قريش والذي سلط الله عليه شوكة من باطن الأرض مات بسببها.. نشأ في

مكة وكان من دواهي العرب وأكبر تجارها.. تأخَّر إسلام عمرو قليلًا، حيث أسلم في العام الثامن من الهجرة بصحبة رفيق دربه وصديقه خالد بن الوليد، وأصبح من كبار قادة المسلمين

حينما تولَّى عثمان الخلافة عقب مقتل الفاروق عمر بن الخطاب أقر الولاة الذين قد تم تعيينهم من قبل عمر ولاياتهم عامًا كاملًا، بعد ذلك أبقى البعض وعزل آخرين وعمل على التعيين في هذه الأمصار حسب الحاجة، وذلك بعد الأخذ بمشورة الصحابة.. وكان من ضمن من عزلهم هو عمرو بن العاص والي مصر وعين مكانه عبد الله بن سعد بن أبي سرح.

مصر جبهة مفتوحة إلى إفريقية، حيث لم يقصر عمرو في غزوها لفتحها والعودة من غزواته محملًا بالغنيمة متوليًا مَهمة فتح البلدان المجاورة طيلة سنين، إلا أن عثمان سرعان ما قرر كف عمرو بن العاص عن غزو إفريقية، وأرسل جيشًا لا يذعن لسلطان الوالي بمصر، وإنما يتصل بالمدينة متخطيًا عمرو بالعاص على غير المألوف والعادة، حيث إن قادة الأمصار هم من يتولون قيادة الغزوات والفتوحات عادة، وكان المكلف بقيادة هذا الجيش عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وهو أخ عثمان بالرضاعة، ووعده بأنه لو استطاع فتح إفريقية فله خمس الخمس من الغنيمة.

غضب عمرو وهاج لهذا التهميش وأحس بالغدر من عثمان، لأن عثمان قد خص به عن نظرائه من العمال فلم يكن عثمان يرسل الجيوش من قبله مباشرةً إلى الثغور، وإنما كان ذلك إلى العمال، حيث يغزو معاوية الروم ويغزو عامل البصرة والكوفة فارس.

نجح عبد الله بن أبي سرح في فتح الأراضي الواسعة من إفريقية والمجيء منها بعظيم الغنائم، وما إن انتهى من غزوه ولاه عثمان خراج

مصر تاركًا لعمرو بن العاص مسؤوليتها العسكرية، وكان لا بد من حدوث الاختلاف بين عمرو وعبد الله، فكتب كلاهما إلى عثمان يشكو الآخر، وما كان من عثمان إلَّا أن عزل عمرو بن العاص عن مصر، وسلَّم عبد الله بن أبي سرح إمارة مصر.

لم يكن عبد الله بن سعد بن أبي سرح رجل صدق، ولم يكن المسلمون يرضون عنه، فهو كان من الذين اشتدوا على النبي وأسرفوا في السخرية منه، وقد ارتد بعد إسلامه وادَّعى كشفه عن زيف نبوة محمد، وأحل الرسول دمه وأمر المسلمين بقتله حتى وإن أمسك بتلابيب الكعبة، وكاد يقتله عند فتح مكة لولا شفاعة عثمان له وإعلان إسلامه، ولا يوجد شك في كون سيرة عبد الله في مصر، قد أصابت أهلها بالسخط عليه.. فقد كان يكلفهم فوق ما يطيقون ويتحملون ويتشدد عليهم حتى شكوه إلى عثمان، فكتب عثمان له يأمره بالرفق في رعيته فلم يحفل بذلك، وإنما عاقب الذين شكوه وضرب منهم رجلًا حتى قتله، وبذلك غضب أهل مصر غضبًا عظيمًا وغضب معهم أعيان الإسلام في المدينة، ولهذا الأمر كان التمرد ضد ابن أبي سرح.

عندما خرجت الإسكندرية من سيطرة الروم، عملوا على تحريض من بالإسكندرية من الروم على التمرد والخروج على سلطان المسلمين، وصادف هذا التحريض رغبةً عند سكانها، فاستجابوا للدعوة وكتبوا إلى قسطنطين بن هرقل، يخبرونه بقلة عدد المسلمين، ويصفون له ما يعيش فيه الروم بالإسكندرية من الذل والهوان، وخلال ذلك، وصل منويل الخصي، قائد قوات الروم، إلى الإسكندرية، ومعه قوات يحملهم في ثلاثمائة مركب مشحونة بالسلاح والعَتاد، علم أهل مصر بأن قوات الروم قد وصلت إلى الإسكندرية فكتبوا إلى عثمان يطلبون إعادة عمرو بن العاص ليواجههم، فاستجاب الخليفة لطلب

المصريين، وأعاد ابن العاص أميرًا على مصر، نهب منويل وجيشه الإسكندرية، ومن ثَم خرج بجيشه يقصد مصر السفلى، دون أن يخرج إليهم عمرو أو يقاومهم أحد، وتخوف بعض أصحابه، أما عمرو فقد رأى أن يتركهم يقصدونه.

وصل منويل إلى نقيوس واستعد عمرو للقائه، تقابل الجيشان عند حصن نقيوس على شاطئ نهر النيل، وخلال المعركة أصاب فرسه سهم، فقتله، فترجل عمرو، وانضم إلى صفوف المشاة، ورآه المسلمون فأقبلوا على الحرب، وخرج المصريون بعد أن رأوا هزيمة الروم يصلحون للمسلمين ما أفسده العدو الهارب من الطرق، ويقيمون لهم ما دمره من الجسور، وأظهر المصريون فرحتهم بانتصار المسلمين على العدو الذي انتهك حرماتهم واعتدى على أموالهم وممتلكاتهم، وقدموا للمسلمين ما ينقصهم من السلاح والمؤونة.

لما وصل عمرو الإسكندرية ضرب عليهم الحصار ونصب عليها المجانيق، فضرب أسوار الإسكندرية حتى سيطروا عليها، ودخل المسلمون الإسكندرية، وكان منويل في عداد القتلى، ولما فرغ المسلمون أمر عمرو ببناء مسجد في المكان، الذي أوقف فيه القتال وسماه مسجد الرحمة، فرجع إليها من كان قد فر منها، وعاد الأنبا بنيامين بطريرك القبط إلى الإسكندرية، بعد أن فرَّ مع الفارين وأخذ يرجو عمرو ألا يسيء معاملة القبط؛ لأنهم لم ينقضوا عهدهم ولم يتخلوا عن واجبهم ورجاه كذلك، ألا يعقد صلحًا مع الروم وأن يدفنه إذا مات في كنيسة يحنس، وشكر المصريون عمرو على تخليصهم من ظلم الروم وطالبوه بإعادة ما نهب من أموالهم ودوابهم من قبل الروم معلنين ولاءهم وطاعتهم، فطلب منهم عمرو أن يقيموا البينة على ما ادعوا ومن أقام بينة وعرف من له بعينه رده عليه، وهدم عمرو سور الإسكندرية وصالح أهل تلك البلاد على الجزية.

بعد عودة مصر وتحريرها من الرومان، عرض عثمان على عمرو أن يستمر في حكم مصر بشراكة ابن أبي سرح، ولكن عمرو رفض وعاد إلى المدينة، وهو ناقم على الخليفة الذي لم يقدِّر جهوده في دحر الرومان وتحرير مصر منهم للمرة الثانية.

بدأت أحداث الفتنة في النصف الثاني من ولايته، وهي التي أدت إلى استشهاده، ومن أسباب تلك الفتنة الرخاء في عهده وأثره في المجتمع، وطبيعة التحول الاجتماعي وظهور جيلٍ جديدٍ غير جيل الصحابة، بالإضافة إلى الشائعات والعصبية الجاهلية، ومن أهم الأسباب خوض المنافقين، حيث وجدوا من يستمع إليهم وكذلك تولية معظم أقارب عثمان الولاية في البلاد المفتوحة كمعاوية في دمشق وابن أبي سرح في مصر، وازدياد نفوذ مروان بن الحكم بصورة أغضبت جميع الصحابة القدامى.

وفق معتقد أهل السنة، فإن المدبِّر الرئيسي للفتنة هو عبد الله بن سبأ، الذي كان يهوديًّا، وأظهر الإسلام في عهد عثمان، ومنهم من عمل على محاصرة عثمان بن عفان في داره وزوروا عليه كتابًا ورد فيه بأنه يريد قتلهم بعد أن أعطاهم الأمان على أنفسهم، وعندما اشتد أمر أهل الفتنة وتهديدهم للخليفة بالقتل تحرَّك الصحابة لردهم وقتالهم، وهو ما رفضه عثمان، وأمر بألا يرفع أحد السيف للدفاع عنه، وأن لا يقتل أحدًا بسببه فقد كان يعلم بأنهم لا يريدون أحد غيره، فكره أن يحتمي بالمؤمنين وأحب أن يقيهم بنفسه، ولعلمه بأن هذه الفتنة فيها قتله كما قال رسول الله من قبل.

بينما تقول الرواية الشيعية: إن أهل المدينة كانوا من الثائرين على عثمان وبعضهم غير مناصر له، وأنهم كتبوا إلى الأمصار بالقدوم إلى المدينة وأن الجهاد فيها، ويرون بأن هناك من الصحابة من هم قد

خرجوا على عثمان ولم ينصروه، فأرسل إلى معاوية بن أبي سفيان ليقاتلهم، ولكنه لم يبعث بجيشٍ إلى نصرة الخليفة عثمان، وقد علل ذلك بأنه كره مخالفة أصحاب النبي، كما يرى الشيعة، بأنه لا وجود لعبد الله بن سبأ من الأساس.

كانت المعارضة تشتد في الولايات، وتصل أصداؤها إلى المدينة، وتشتد في المدينة، فيصل أصداؤها إلى الولايات البعيدة فتزداد جرأة، حتى كتب أصحاب الرسول المقيمين في المدينة، إلى أصحابهم خارج المدينة بالقدوم إليها لتصحيح ما أعوج من أمور الخلافة، فتكاثر الناس واجتمعوا في المدينة ولاموا عثمان على سياسته، ثم كلفوا الإمام على بن أبي طالب أن يدخل على عثمان، ويحادثه في ذلك الأمر.

بعد هذه المقابلة، خطب عثمان في الناس ينذرهم ويحذرهم، ثم ذهب إلى بعض من اللين، ولكنه بقي على موقفه، ورغم أن علي بن أبي طالب لم يكن راضيًا على ما كان يفعله عثمان، إلا أنه وضع في ذلك اليوم ولديه الحسن والحسين أمام بيت عثمان ليقوما بحمايته، أرسل بعدها عثمان يطلب قدوم معاوية وعبد الله بن أبي سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص إلى المدينة للاجتماع بهم، استشارهم عثمان عند قدومهم في كيفية التعامل مع المعارضة، فأشار له معاوية بأن يترك التعامل مع المعارضة على عاتق الولاة، وأشار له سعيد بقتل قادة المعارضة، بينما أشار له عبد الله بن أبي سرح بأن يرشوهم من المال ليسكتوا، فيما أشار إليه عبد الله بن عامر أن يشغل المسلمين في الحرب والفتوحات، فعمل عثمان برأي عبد الله بن عامر.

ما إنْ دخل العام الخامس والثلاثون من الهجرة، حتى ثار أهل الكوفة على حاكمهم سعيد، وطلبوا أن يولى عليهم أبو موسى الأشعري، وظهر للناس بأن الثورة هي الطريق الوحيد لتنفيذ مطالبهم من الخليفة.

لم يكن للمصريين حلٌ سوى أن يرسلوا وفدًا إلى المدينة يطلبوا فيه من عثمان كف ابن أبي سرح عن التسلط على رقاب المسلمين ومقدَّراتهم، فخرجوا بوفدٍ ضخمٍ متظاهرين أنهم يريدون العمرة، فأرسل لهم عثمان جماعة من المهاجرين والأنصار على رأسهم علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة الأنصاري، ليلتقوا بهم في قرية خارج المدينة، فخرج لهم علي ومن معه، فوعدهم على لسان عثمان أن ينفذ مطالبهم، وقدم وفد منهم إلى عثمان في داخل المدينة، فخطب بهم وأثنى عليهم، وأعطى التوبة واستغفر الله وبكى، وبكى الناس ورضوا بما قطعه عثمان على نفسه من عهود، وغادر وفد المصريين المدينة عائدين إلى ديارهم.

ما إنْ عادت وفود المصريين إلى مصر، حتى تلقَّاهم عبد الله بن أبي سرح بعد أن عرف بأمرهم فضرب رجلًا منهم فقتله، ومرَّت الأيام دون أن يعزِل عبد الله بن أبي سرح، فتواعد المصريون مع أهل الكوفة والبصرة للقدوم إلى المدينة، بعد أن استيأسوا من وفاء الخليفة بعهوده، فتحركوا في شَوال من نفس العام صوب المدينة، وما إن وصلت وفود المعارضين إلى ضواحي المدينة، طلب عثمان من علي أن يخرج لهم مرةً أخرى، فأبى علي ورفض أمر الخليفة، وأبى كذلك محمد بن مسلمة وقال: "لا أكذب الله في السنة مرتين".

انتهى الأمر بعزل ابن أبي سرح، وتولية محمد بن أبي بكر، فأرسله إلى مصر ومعه جمعٌ من الصحابة، وعندما كان محمد بن أبي بكر، ومن معه في الطريق إلى مصر أزعجهم رجل يركب بعيرًا، فأوقفوه بعد أن شكوا فيه، وظهر أنه مبعوث من عثمان إلى والي مصر، ويحمل معه كتابًا له، ففتحوا الكتاب المختوم ليجدوا فيه أمرًا من الخليفة إلى عبد الله بن أبي سرح، يدعوه فيه إلى قتل المعارضين الذين قدموا إلى المدينة.

أرسل المصريين إلى أهل العراق الذين تفرقوا عنهم يرجعوهم إلى المدينة ودخلوا المدينة بسرعة، حتى فاجئوا من فيها، فذهبوا إلى عثمان وقالوا له: "هل هذا غلامك؟".. وهم يقصدون حامل الكتاب.. فقال: "نعم إنه غلامي وانطلق بغير علمي"، فسألوه: "هل هذا جملك؟"، فأجاب: "أخذه من الدار بغير أمري"، فسألوه مرةً أخرى: "هل هذا خاتمك؟"، فأجابهم: "نقش عليه"، فقالوا له: "إن لم تكتب أنت الكتاب فسلمنا من كتبه".

وهنا ارتفعت مطالب المعارضين الذين تحولوا إلى ثوار، فطالبوا بأن يعزل عثمان نفسه، وأن يولي كبار صحابة المسلمين خليفةً جديدًا بدلًا عنه.. فرفض عثمان ذلك، فما كان من الثوار إلا الاعتصام في المدينة، حتى تنفذ مطالبهم، وكانوا خلال ذلك لا يضايقون عثمان وكانوا يصلون وراءه، حتى كتب عثمان إلى ولاته كتابًا يدعوهم فيه إلى إرسال مقاتلين حتى ينصروه على الثوار، فعلم الثوار بأمر الكتاب، فبدأ الحصار وتغيرت سيرتهم مع عثمان، فخرج عثمان على المنبر يلعن الثوار، فتشاجر القوم بالأيدي، حتى ضرب عثمان فسقط مغشيًا عليه، وحمل إلى بيته وضرب الثوار حصارًا على بيته، ومنعوه من الخروج منه.

أخذت الأمور تصل إلى حدتها بالتأزم عندما قتل أحد الثوار وهو نيار بن عياض الأسلمي، عندما رمي أحد المحاصرين في دار عثمان سهمًا نحوه.. وقيل أن رامي السهم كان مروان بن الحكم.. فقالوا لعثمان عند ذلك: "ادفع إلينا قاتل نيار بن عياض فلنقتله به".. فقال لهم: "لم أكن لأقتل رجلًا نصرني وأنتم تريدون قتلي".. حتى بلغ الأمر ذروته، فاقتحم الثائرون الدار.

في تلك الليلة صلى عثمان، رضي الله عنه، صلاةً نافلةً ختم فيها سورة طه، ثم جلس بعد ذلك يقرأ في المصحف، في هذا الوقت كان أهل الفتنة يفكرون بشكلٍ حاسمٍ وسريع في قتل عثمان، خاصةً مع علمهم باقتراب الجيوش الإسلامية المناصِرة للخليفة.

دخل رجلٌ يدعى كنانة بن بشر التجيبي، وكان من رءوس الفتنة، بشعلةٍ من نارٍ وحرق باب بيت عثمان ودخل ومعه بعض رجال الفتنة، ثم دخل رجل آخر يسمونه "الموت الأسود"، قيل إنه عبد الله بن سبأ، وقيل غيره، فخنق عثمان بن عفان خنقًا شديدًا، حتى ظن أنه مات فتركه وانصرف، ودخل بعد ذلك محمد بن أبي بكر الصديق، وكان يظنه قد مات فوجده حيًّا، فقال له: "على أي دين أنت يا نعثل؟ ([1])، فقال عثمان: "على دين الإسلام، ولست بنعثل، ولكني أمير المؤمنين".. فقال له محمد: "غيرت كتاب الله"، فرد عليه عثمان: "كتاب الله بيني وبينكم"، فتقدم إليه ابن أبي بكر وأخذ بلحيته وهزه منها قائلًا: "إنا لا نقبل أن نكون يوم القيامة مما يقول: (رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ)"، فقال عثمان حينها: "يا ابن أخي، إنك أمسكت لحيةً كان أبوك يكرمها".

فلما قال له عثمان ذلك، وضحت الحقيقة فجأة أمام محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، وكأن عثمان أزال بهذه الكلمات غشاوةً كانت تحجب الحق والصواب عن قلب محمد بن أبي بكر، وتذكر تاريخ عثمان مع رسول الله ومع أبيه الصديق ومع المسلمين، فاستحى محمد بن أبي بكر وخارت يده من على لحية عثمان بن عفان، وبكى، ثم وقف وتركه وانصرف، فوجد القوم يدخلون على عثمان فأمسك سيفه وبدأ يدافع عن عثمان، ولكنهم غلبوه فلم يستطع أن يمنعهم، ويشهد بذلك السيدة نائلة بنت الفرافصة زوجة عثمان، رضي الله عنه.

ثم دخل على عثمان كنانة بن بشر، وحمل السيف وضربه به، فاتقاه عثمان بيده، فقطع يده ليتقاطر الدم على المصحف، وتثبت جميع الروايات أن هذه الدماء سقطت على كلمة (فسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ).

---

[1] "نعثل" سُبة تقال للشيخ الأحمق وللظبي كثير الشعر.

بعد ذلك حمل عليه كنانة بن بشر وضربه بعمود على رأسه، فخر عثمان على جنبه وهم كنانة بالسيف ليضربه في صدره، فانطلقت السيدة نائلة بنت الفرافصة تدافع عن زوجها، ووضعت يدها لتحمى زوجها من السيف فقطعت بعض أصابعها بجزء من كفها، ووقعت السيدة نائلة على الأرض.

طعن كنانة عثمان مرةً أخرى في صدره، ثم قام سودان بن حمران بحمل السيف، وطعن عثمان، فمال عثمان إلى الأرض فقفز على بطنه واتكأ على السيف بجسده، ليتأكد من اختراق السيف لجسد عثمان حتى مات "ذو النورين" بعد هذه الضربة.. ثم قفز عليه عمرو بن الحمق وطعنه في صدره تسع طعنات وقال: "هذه الثلاثة الأولى لله.. وهذه الست لشيء في نفسي".

استشهد "ذو النورين" عثمان، رضي الله عنه وأرضاه، زوج ابنتي الرسول، صلى الله عليه وسلم، والمبشَّر بالجنة، وثالث الخلفاء الراشدين.

كان عمرو بن العاص في هذه الفتنة يبدو بالصامت، إلا أن هناك العديد من الروايات والتي لم تثبت صحتها، كانت تقول إن عمرو كان يحرض على عثمان لغضبه منه بعد أن عزله عن ولاية مصر، وتولية ابن أبي سرح.

اتخذت الفتنة أبعادًا أخرى بعد ذلك، حيث خرج العديد من الصحابة مطالبين بثأر عثمان، لتتخذ الفتنة أبعادًا جديدة.

في النهاية.. اعتذر من الجميع عن عدم ذكري لكل أحداث الفتنة كما حدثت؛ فالموضوع صعب وشائك على الجميع، فقط أتذكر كلمةً سمعتها من قبل تقول: إننا نتقرب إلى الله عز وجل بعدم الخوض في أمر الفتنة، وقانا الله شرها ونارها.